آلية فهم النص بمنظور هرمنيوطيقيا غادامير(أيوبيات السياب إنموذجا)

إيناس كاظم شنبارة الجبوري

الجامعة الإسلامية /فرع بابل – كلية العلوم الإسلامية

قسم الدراسات القرآنية واللغوية

The mechanism of understanding the text from a hermeneutic perspective ,Gadamir (Ayoubiyat al_ sayyab)

Enas kithum shanbaraa al_jeboree

University al_islamic/college of Islamic sciences

Department of quranic and Linguistic Studies

Abstract

Interpretation is an attempt to reach the places of things, words, shapes, or facts. And knowing the hidden meanings of it by going beyond the apparent to explore the depths. Gadamir - one of the most famous philosophers of hermeneutics in the twentieth century - presented a new path focusing on the productive mechanism (understanding). Understanding is limited to the text, away from the author and the circumstances of its formation.

Gadamir is interested in language as a communicative dialogue rather than grammar and grammar. He also considered the temporal distance to be the basis for a positive and productive possibility for understanding and a role in determining the activity of the art of interpretation.

We have applied Gadamir's theory to the texts of al-Sayyab (the Ayyubids) and reached the possibility of understanding the text with the limits of its language, and that the Ayyubids consisting of ten poems are in the linguistic structure one sophisticated poem in meaning that went through three stages from acceptance to complaint, and then despair and loss of hope.

Key words: (Hermeneutics- hermeneutic- A philosophy to understand – principles of hermeneutics _ Ayoubiyat al sayyab)

الملخص

التأويل محاولة الوصول إلى مواطن الأشياء أو الالفاظ أو الأشكال أو الحقائق . ومعرفة المعاني الخفية لها من خلال تجاوز الظاهر لسبر الأغوار . قدّم غادامير_ وهو من أشهر فلاسفة الهرمنيوطيقيا في القرن العشرين مسارًا جديدًا يركز على الآلية المنتجة وهي(الفهم) .والفهم محدد بالنص بعيدًا عن المؤلف وظروف نشأته .

أهتم غادامير باللغة بوصفها حواراً تواصلياً وليس قواعد واصول النحو . كما اعتبر المسافة الزمنية هي المؤسس لإمكانية إيجابية ومنتجة للفهم ولها دور في تحديد نشاط فن التأويل .

لقد طبقنا نظرية غادامير على نصوص السياب (الأيوبيات) وتوصلنا الى إمكانية فهم النص بحدود لغته وان الايوبيات المكونة من عشر قصائد هي في البنية اللغوية قصيدة واحدة متطورة في المعنى مرت بثلاثة مراحل من القبول الى الشكوى ومن ثم اليأس وفقدان الأمل .

الكلمات المفتاحية: (التأويل – الهرمنيوطيقيا – فلسفة الفهم – مبادئ التأويل – أيوبيات السياب)

نظرية التأويل الهرمنيوطيقيا :

يرتبط المفهوم اللغوي للتأويل بالمعنى الاصطلاحي ، فالعودة إلى المعاجم العربية تكشف لنا حقيقة التأويل التي تعود إلى جذره (أوّل) آل إليه : يؤول أولاً ومالاً : رجع . ومنه قولهم : فلان يؤول إلى كرم. وأوّل الكلام تأويلاً أي دبره وقدّره وفسّره[1].

وقد ورد لفظ التأويل في قوله تعالى ((ولمّا يأتيهم تأويله)) [2]أي لم يصل اليهم بعد علم تأويله .

التأويل في فهمه الاصطلاحي ينطلق من كونه: فعالية أدبية وفكرية ينهض بها المتلقي بعد القراءة الدقيقة للنص، ولا يستطيعها إلاّ من امتلك ذهناً عميقاً وعقلاً راجحاً . وهذا يعني أن التأويل يعني تجاوز التفسير التقليدي إلى بيان المعاني المتعددة التي يحملها النص وذلك عن طريق تقصّي البنيات التحتية الكامنة في النص مع إبقاء مسافة من أجل الاصغاء إلى ما يقوله وما لا يقوله ، وقراءة المكتوب والمكبوت . فعالية التأويل تحمل التعددية والاختلاف لأنها ذات بعد فردي متعلقة بعمق الإدراك وكشف مكنون النص وإيصاله إلى الاخرين[3] .

ينحى التأويل مفهوماً جديداً عند غادامير مفاده أنّه ((محاولة لفهم العلوم الإنسانية بصرف النظر عن المنهج))[4].

فالقراءة التأويلية بحاجة إلى قراءة النص قراءة فاحصة حتى يستطيع المؤول كشف وتحديد المعاني اللغوية في العمل الأدبي من خلال التحليل وإعادة صياغة المفردات والتراكيب ومن خلال التعليق على النّص ، ويركز التأويل على مقطوعات غامضة أو مجازية يتعذر فهمها باستخدام وسيلة اللغة ، ولهذا ينطوي التأويل على (شرح) خصائص العمل وسماته مثل النوع الأدبي الذي ينتمي إليه ، وعناصره وبنيته وغرضه وتأثيراته[5]

قدّم هانس جيورج غادامير الفيلسوف الألماني الشهير في بداية مشواره الفكري كتابه (الحقيقة والمنهج) سنة 1960 وقبل ذلك كتب رسالته الجامعية حول(ماهية اللذة في حوارات افلاطون) وقدم مفهوماً مختلفاً لتأويل النصوص مرتبطاً بمصطلح الهرمنيوطيقيا .

---

(1) نظر : لسان العرب : مادة (أوّل) ، تاج العروس من جواهر القاموس (أوّل).

(2) سورة يونس:39وجاء في الكشاف (ان الكفار سارعوا الى تكذيب القرآن الكريم قبل ان يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه . ينظر : الكشاف

(3)ينظر : اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب الى المكبوت : محمّد عزّام ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة – دمشق 2008: 21-22.

(4) فلسفة التأويل: 18

(5) دليل الناقد الأدبي :د ميجان الرويلي وسعد البازعي ، المركز الثقافي العربي – بيروت ، ط4-2005 : 88

الهرمنيوطيقيا باختصار هي نظرية التأويل وممارسته ، ولا تقتصر هذه الممارسة على التأويل الأدبي ، ونعني بصيغة عامة تكوين الإجراءات والمبادئ المستخدمة في الوصول إلى معاني النصوص المكتوبة بما في ذلك النصوص القانونية والتعبيرية والدينية [6].

ونظرية التأويل الحديثة (الهرمنيوطيقيا) تقسم على أربع مدارس وهي [7]:

- هرمنيوطيقيا عامة أو كلية : تبحث عن القواعد والمعايير المنهجية العامة التي تجعل من الفهم فنّاً وعلماً ممكناً . ومثّل هذه المدرسة شلايرماخر وطوّرها ديلثاي .
- هرمنيوطيقيا خاصة أو محلية : فهي أشبه بالمنهج الهرمنيوطيقي داخل حقل خاص من الحقول ، مثلها بول ريكو وتأثر بها رودولو اوتّو الذي قام بتحليل فكرة المقدس.
- هرمنيوطيقيا فلسفية أو الفلسفة الهرمنيوطيقية التي تقرر التأمل الفلسفي لظاهر الفهم موضوعا لها . بعيداً عن تقويم منهج أو بيان أصول وقواعد تتحكم في عملية الفهم والتفسير . وهو ما ابداه هيدجر وتلقفه منه تلميذه غادامير .
- هرمنيوطيقيا نقدية : تعالج تأثير العوامل غير اللغوية في الأمور الثقافية . ويعيد كل من هابرماس وابل من اشهر مفكري هذه المدرسة .

ما يهمنا في هذا البحث المدرسة الهرمنيوطيقية الفلسفية وجهود غادامير تحديداً .

يعد غادامير من أشهرشخصيات علم التأويل في القرن العشرين حوّل فكر استاذه هايدغر إلى نظريات تعنى بالتأويل النصي ، وسعى إلى بيان إمكانية التأويل الصحيح .

قدّم غادامير التأويل على أنه ((ممارسة لعبة ما مَن لا يشارك فيها بجدية يوصف بتعطيل اللعب ، ومن يشارك فيها لا يعزل اللعب عن ذاته، وإنما يصبح جزءاً من اللعبة ، فيمتلك دوراً يؤديه ، وهكذا فان اللعبة أداء ، وليس عادة أو موضوعاً واللاعب دوره هامشي ، يتمثل في مدى الحرية التي يستطيع ممارستها داخل قوانين اللعبة ، ومثله دور المبدع في العمل الأدبي ، فهو يبدأ بمحاولة تشكيل تجربته الوجودية ، ثم تستقل التجربة في تشكيلها عن ذاتية المبدع ، لتتحول إلى وسيط له قوانينه الداخلية وديناميكيته ، ومثلها دور المتلقي ، فتجربته الوجودية السابقة هي التي تحدد له قدراً من المشاركة في تجربة العمل الأدبي))[8].

إن لظاهرة اللعب عدد من العناصر الهامة والتي يمكن أن تُلقي الضوء على العمل الفني واسلوبه في الوجود.

غير أن غادامير أراد من هذه النظرية ((أنّ اللعب هو اللعب وما هو بالجد ،آلا ان للعب نوعاً قدسياً من الجدية : وحقيقة الأمر أن الشخص الذي لا يأخذ اللعب مأخذ الجد فهو يفسد المباراة . فاللعبة لها ديناميتها وأهدافها الخاصة بمعزل عن وعي أولئك الذين يلعبونها .

---

(6) ينظر : م.ن:88-89

(7)ينظر : هرمنيوطيقيا الشعر العربي ، يوسف إسكندر ، دار الكتب العلمية ، بيروت –لبنان ،ط1- 2008: 19-20.

(8)اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب الى المكبوت ك 90-91.

والمباراة ليس موضوعاً في مقابل ذات ، وإنّما هي حركة من الوجود محددة ذاتياً تدخل فيها وتنخرط في مناخها . وإن اللعبة تصبح هي الذات الحقيقية . صحيح ان اشتراكنا هو الذي يأتي بالمباراة ويجعل منها عرضا ، غير أن ما يمثل الآن ليس ذواتنا الداخلية بل المباراة : المباراة الآن قائمة تحدث فينا ومن خلالنا))[9].

من هذه النظرية نلاحظ أن غادامير أرد أن يبيّن أوجه التماثل بين العمل الأدبي واللعب ، بل استخدم اللعبة كبنية تتمتع بالاستقلال الذاتي وتنفتح للمشاهدة ، وأراد توضيح العمل الأدبي بأنه شيء دينامي لا شيء سكوني ، فالعمل الفني ليس مجرد موضوع للمتعة ؛ أنه عرض ثم نقلة إلى صورة لحقيقية الوجود بوصفه حدثاً .

التأويل عند غادامير لا يتم إلاّ بعملية الفهم وقد استعار لتجسيد هذه العملية آلية اللعبة التي هي جسد الشكل الفني ووسيطها ، والفنان هو اللاعب الذي يمثل الطرف الأول ، بينما يمثل المتلقي الطرف الثاني من طرفي اللعبة ، لتنشأ علاقة حوار ومساءلة بين اطراف اللعبة . محورها وسيط اللعبة الثابت (الشكل الفني) وتتسم هذه العلاقة بكونها متحركة ومتطورة ومتغيرة تبعاً لتغير افق المتلقي وهذا يجعل عملية الفهم ممكنة ومتغيرة [10].

فلسفة الفهم :

اخذ التأويل عند غادامير مساراً جديداً ، فقد جرى تركيزه على الآلية المنتجة للتأويل آلا وهي (الفهم) وثمة مبدأ أساس في نظرية غادامير ينص على أن الفصل بين الفهم والتأويل محض تجريد ، ويصّر غادامير مراراً على أن الفهم كله ينطوي على تأويل وهي من المسائل الضرورية للفهم .

يسعى غادامير في منهجه إلى جوهر أساس قائم على ((ضرورة تخليص عملية الفهم من الطباع الذي وسمتها به رومانطيقية دلثاي وشلايرماخر ، ومن ثم ضرورة فصل النص من ذهنية المؤلف وروح العصر الذي ينتمي إليه في حيثياتها الخفية وفي بعدها التاريخي))[11]

وفي نظر غادامير ليس المهم ان نفعل ونتجنب في عملية الفهم بل الاحرى الاهتمام بما يحدث بالفعل في هذه العملية .

ويعلل غادامير قائلاً((إنّنا ندرك ذلك (الفهم) عندما نتعلم اللغات الاجنبية . نتعلم قبل كل شيء ضرورة تركيب جملة مفيدة قبل أن نفهم المعنى الألسني لإجرائها لكن مسار التركيب هذا يبقى تحت توجيه انتظار المعنى عن السياق السابق ، وينبغي طبعا تصحيح هذا الانتظار إذا اقتضى النص ذلك . ولكن هذا لا يعني إن الإنتظار يتغير باستمرار و وجود انتظار جديد للمعنى هو الذي يزود النص بوحدة المعنى وهكذا تصدر حركة الفهم عن الكل لتتجه نحو الجزء لتعود مرة أخرى إلى الكل ، يكمن النشاط في توسيع وحدة المعنى المفهوم حسب الدوائر المتحدة .

---

(9)فهم الفهم (مدخل الى الهرمنيوطيقيا) نظرية التأويل من افلاطون الى غادامير ، د عادل مصطفى ،ط1 –مصر – 2007 : 290.

(10)ينظر : لعبة المتاهة في التأويل ، د. بشرى موسى صالح ، دار أزمنة للنشر والتوزيع ، ط1، 2009 : 21.

(11)من فلسفة التأويل الى نظريات القراءة ، عبد الكريم شرقي ، منشورات الاختلاف ، ط1–2007: 36.

انسجام جميع الخاصيات والاجزاء مع الكل يؤسس معيار الدقة في الفهم . انعدام هذا الانسجام يعني الإخفاق في الفهم))[12]

هذا القاعدة التأويل القائلة إننا يجب ان نفهم الكل بمقتضى الجزء ، ونفهم الجزء بمقتضى الكل . وهذا المبدأ في اصوله ناشئ من البلاغة القديمة ، ثم إنتقل إلى التأويلية الحديثة ومن ثم إلى فن الفهم .

فالفهم مرحلة ضرورية في العملية التأويلية وهو صيرورة ناتجة عن الوضيفة الفعلية للتاريخ ويمكننا تبيان ان الخاصية اللغوية ضرورية لكل فهم يؤسس دعائم فن التأويل .

من هذا المنطلق نتوصل إلى أن ((مهمة الهرمنيوطيقيا بالدرجة الأساس في فهم النص لا في فهم المؤلف، وهو أمر لا بد أن يكون واضحاً بذاته من خلال مفهوم المسافة الزمنية ومن خلال التوكيد على المعنى في الفهم التاريخي، إن النص ثم فهمه لا لأن هناك علاقة بين الأشخاص بل لأن هناك مشاركة في موضوع الحديث الذي يوصله النص))[13] فأن أي عمل فني على وجه العموم لا يهدف إلى تحقيق المتعة الجمالية فحسب بل يظهر وبدرجة أساسية بإعتباره (حاملاً للمعرفة) بالمعنى العميق لهذه العبارة . وينسجم عن هذا التصور إن عملية الفهم لن تكون متعة جمالية خالصة ، بل تقوم على نوع من المشاركة في المعرفة يحملها النص .

نصل إلى أن أي نص يضع موضع التأويل يجب أن يُفهم بعيداً عن حياة المؤلف ودرسته وعادته ، وإنما فهمنا للنص يعتمد على مدى قدرتنا على استكشاف معنى المؤلف من مجمل عمله . وعلينا الاّ نفكر بشيء آخر غير ما كان عقل المؤلف يفكر به .وهذا التفكير يجعل المؤول يفهم النص ويصل إلى جوهره ويُفهم الاخرين . هذه النقطة التي اختفت في ميدان التأويل الذي وضعه شلايرماخر . وفصّل القول في ذلك غادامير قائلاً((... فلننظر إلى نقطة لم ينظر إليها شلايرماخر نفسه ..فلنبدأ بالقضية الأتية إن فهم النص يعني أن يُفهم أحدُنا الآخر . إن الفهم هو أساساً إتفاق ، لذلك يفهم الناس في العادة ، بعضها بعضا على نحو مباشر ، أو انهم يجعلون من انفسهم مفهومين من أجل الوصول إلى اتفاق . إن بلوغ فهم ما هو دائماً بلوغ فهم حول شيء ما . وفهم احدُنا الأخر يتعلق دائما بشيء ما ،... ويصبح الفهم مهمة خاصة فقط عندما يلف تشوش الحياة الطبيعية وحيث ينشأ سوء فهم ، أو حيث يجعل تعبيراً ما تشعر بالغربة أمامه كونه غير واضح ..))[14].

ركز غادامير على مسألة الفهم كونه يمثل خطوة أساسية وضرورية في العملية التأويلية ، ومن خلاله يتم فهم الأثار النفسية على ضوء المقاصد الفردية والاجتماعية والتاريخية .

---

(12)فلسفة التأويل (الأصول –المبادئ –الأهداف) ، هانس جيورج غادامير ، ترجمة : محمد شرقي الزين ، دار الاختلاف ، ط2: 120.

(13 فهم الفهم (مدخل الى الهرمنيوطيقيا) : 312.

(14)الحقيقة والمنهج ، هانس جيورج غادامير ، ترجمة :د.حسن ناظم : 265-266.

اللغة في العملية التأويلية

يرى غادامير أن اللغة لها دور مهم في العملية التأويلية ، فهي تكشف لنا عالمنا ولا يعني هذا بالعالم البيئة بل يعني عالمنا الحياتي ، واللغة عنده هي التي تخلق إمكانية أن يكون للإنسان عالم عن طريق الحوار المتبادل والفهم بين الافراد . ومن خلال اللغة يمكننا فهم موروثات أخرى وأماكن فهي وسيط للتجربة التأويلية كما يراها غادامير في قوله ((إن العملية اللفظية التي تكون بها محادثة بين لغتين مختلفتين ممكنة عبر الترجمة وهي عملية نقل المعلومات على نحوٍ خاص. وهنا يجب على المترجم ان يترجم المعنى ليفهم في السياق الذي يحيا فيه المتكلم الآخر))[15] فاللغة هي الوسيلة التي يحدث فيها الفهم ، والفهم الهرمنيوطيقي هو ظاهرة اللغة بالمعنى الأوسع الذي يحضر فيه التراث الثقافي ذاته بوصفه (لغة).

كما ان للغة دور في تحديد الفعل التأويلي ، يوضح غادامير دور اللغة في هذا المجال من خلال تحليله للعملية التأويلية قائلاً : ((رأينا ان اكتساب افق للتأويل يستدعي صهر الافاق . ويتأكد هذا الآن بالجانب اللغوي للتأويل . فالنص يكوّن ليتكون من خلال التأويل . ولكن لا نص وكتاب يتكلم إذا لم يتكلم لغة توصل الآخر . وهكذا يجب على التأويل ان يجد اللغة الصحيحة إذا أراد حقيقة ان يجعل النص يتكلم .))[16]

نستنتج من هذا الأفق ان هناك علاقة قوية بين اللغة والفهم ، فالفهم الهرمنيوطيقي هو ظاهرة اللغة بالمعنى الأوسع الذي يحضر فيه التراث ذاته بوصفه لغة ، وكثير ما يحضر بوصفه نصوصا مكتوبة . وإن تأويل هذه النصوص يعني الدخول معها في حوار ، وعندئذ يحث الفهم بواسطة اللغة ويصنف الفهم هنا بحسب غادامير بالتلسين أو (اللسانية) .

لا يبحث غادامير عن (ذرية) اللغة بما هي قضايا وتركيبات منطقية وقواعد نحوية وإنّما نبحث بمحتواها ومضامينها التواصلية .

فاللغة إذن هي عبارة عن حوار وتواصل وليس مجرد هندسة خطابية وقوالب لفظية ، لا يتم التعامل مع نحوية اللغة وإنّما هي حوار .

مبادئ التجربة التأويلية (الفهم – التأويل – التطبيق)

هذه المبادئ هي الأهم في الهرمنيوطيقيا ، فالفهم عبارة عن عزم أساسي بواسطته يحيا الانسان مع الأخر ويتواصل معه ، ويتحقق من خلال اللغة والحوار . اما التأويل فهو أساس في تقصّي البنيات التحتية للنص وكشف مكامن النص وغوامضه . لكن الهرمنيوطيقيا ليس فهما وتأويلا فقط بل هي تطبيق ايضاً .

فإذا تحققت هذه المبادئ الثلاث يمكننا القيام بالتجربة التأويلية ، فهمنا للنص الأدبي ((لا يعني فهم تجربة المؤلف، بل يعني فهم تجربة الوجود التي تفصح عن نفسها من خلال النص – والشكل الفني – وسيط ثابت بين المبدع

(15)الحقيقة والمنهج :506

(16)م.ن: 521.

والمتلقي . وعملية الفهم متغيّرة طبقاً لتغير الأفاق والتجارب . ولكن ثبات النص – كشكل – هو العامل الأساس لجعل عملية الفهم ممكنة))[17]

أمّا بالنسبة للتأويل فهو ليس خطوة ثانوية بل هو مكمل لعملية الفهم ، بل أنّ الفهم هو تأويل دائماً وهذا واضح من خلال قول غادامير : ((التأويل ليس واقعة ثانوية تكمل الفهم ؛ بل ان الفهم بالأحرى هو تأويل دائماً ، ومن هنا فان التأويل هو الفهم بشكله الصريح . وطبقا لهذا يُنظر إلى اللغة والمفاهيم التأويلية على إنها تنتمي إلى بنية الفهم الداخلية))[18]

أمّا التطبيق فهو المتمم لعملية الفهم والتأويل، ويظهر باعتباره الوضعية الملموسة التي تربط بين أجزاء العملية. فالتطبيق يستطيع ان يبيّن لنا مدى تأثير النص والكيفية التي يؤثر في الواقع الراهن للمفسّر، وفي مفاهيمه الخاصة، وفي نظرته إلى العالم وإلى ذاته.

عالج غادامير مشكلة التطبيق بعد ان كان ذا أهمية معدمة لدى شلايرماخر والمفكرين الأخرين . فقد عدّ غادامير التطبيق جزءاً من الفهم كله ، ومثلما يكون الفهم هو تأويل دائماً ، يكون الفهم على هذا النحو هو تطبيق دائماً ، فالهرمنيوطيقيا إذن ليس فهم وتأويل بل هي تطبيق أيضاً. ويشكلون الثلاثة في العملية التأويلية وحدة لا انفصام لها. وهذا الاندماج للتطبيق في عملية الفهم والتأويل هو ما جعل غادامير يُقيّض للهرمنيوطيقيا القانونية والميثيولوجية أولوية وصدارة على الهرمنيوطيقيا الأدبية كنموذج للفهم في العملية الإنسانية [19].

المسافة الزمنية وماهيّة الموضوع التاريخي

يرى غادامير إن المسافة الزمنية هي من الظواهر الوضعية التأويلية التي لم تناقش إلاّ نادراً.

فالزمن ليس هوّة ينبغي لنا تجاوزه لإيجاد الماضي بل هو الأرضية التي تحمل المستقبل ويتخذ منها الحاضر أصله. فالمسافة الزمنية لا ينبغي عزلها بحسب التصور الساذج للتاريخانية . بل يمكن اعتبارها كمؤسس لإمكانية إيجابية ومنتجة للفهم . وهذه المسافة مملؤة باستمرارية العادات والتقاليد، فهي الواقع الأساس الذي يدعم مجرى الاحداث الذي يمد الحاضر فيها جذوره .

وعلى الرغم من أنّها تحتل جانب سلبي في العملية التأويلية حيث تقوم بعملية غربلة جميع الأشياء التي تحجب المعنى الحقيقي في صورة ليس ساكنة وإنما هي نفسها تخضع للحركة والتوسع الدائمين ، بالإضافة الى هذا الجانب السلبي في عملية الغربلة فإنها تحتل جانب إيجابي ، اعني القيمة التي المسافة الزمنية للفهم فهي لا تزيل فقط الاحكام المسبقة المرحلية والمحدودة ، بل تفسح المجال أمام تلك الاحكام المسبقة التي تعمل على انبثاق الفهم بوضوح بحد ذاته [20]

(17 إشكاليات القراءة واليات التأويل ، نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، بيروت – لبنان ، ط6–2001 : 42.

(18)الحقيقة والمنهج: 418.

(19 ينظر : فهم الفهم (مدخل الى الهرمنيوطيقيا) : 315.

(20)ينظر: الحقيقة والمنهج : 408.

ويرى غادامير إنّ لهذه الظاهرة فضلاً جديد فهي تحدد نشاط فن التأويل ، من خلال توضيح مفهومها يمكننا اكتساب النشاط النقدي لفن التأويل ، بمعنى التمييز بين الأحكام المسبقة الخاطئة والأخرى الصحيحة . وعليه ينبغي رفع الأحكام المسبقة عن الفهم التي تقوده والتي تسمح للمقاصد الأخرى للتراث التخلص منها والذي يضمن إمكانية فهم الشيء كشيء اخر. [21]

ويقول فائق مصطفى من خلال تسليط الضوء على فلسفة غادامير ((إن الزمن وحده ما يفرز الدال من غير الدال . لِمَ كان الأمر كذلك ؟ ليس لأن المسافة الزمنية قد قتلت اهتماماتنا الشخصية بالموضوع بل لأن في عمل الزمن ان يُقصي ما هو غير جوهري فيسمح للمعنى الحقيقي المخبوء في الشيء أن يظهر ويتجلى . هكذا يتبين إن للمسافة الزمنية إلى جانب سلبياتها أثار جانبية أيضاً : فالمسافة الزمنية لا تتيح فقط لفروض أسبقية خاصة بالموضوع ان تتنحى وتبيد ، بل يأتي أيضا بتلك الفروض التي تؤدي إلى الفهم الصحيح وتدفع بها إلى الصدارة.))[22]

لقد اتضح دور المسافة الزمنية في العملية التأويلية ويرى غادامير أن بوسعها – غالباً– حل مسألة النقد في التأويل. أمّا بالنسبة لماهيّة الموضوع التاريخي – فيما يرى غادامير – ان التاريخ جزء لا يتجزأ من كينونة أي تكوين أو خلق ، وان الوعي الهرمنيوطيقي ذو طابع تاريخي ، وهو مهم في عملية الفهم ، كما إن هناك مصطلح مترجم (بالتاريخ الفعّال)أراد به غادامير الاتحاد الذي يحدث بين أي نص والفكر التاريخي ، ذلك الاتحاد الذي يكشف واقع التاريخ وواقع الفهم التاريخي : أي ان الفهم محدد تاريخياً .

فلسفة غادامير دعته يجادل قائلاً : ((ان المؤرخين الأدبيين يشترطهم التراث الذي يمثلونه ، اذ لا يمكنهم الهروب من حقيقة ان تاريخ آثار النص أو ثقافته الماضية ما يزال فاعلاً في تحديد القضايا التي يثيرها والمشكلات التي يحاول حلها))[23].

نلحظ غادامير يؤكد على عنصر التاريخ ويجعله فاعلاً وليس سلبياً كما هو لدى دلثاي .

ولكن مشكلة غادامير تكمن في فهمه للتاريخ باعتباره شكلاً متصلاً لا ينقطع ، خاليا من أي تمزق حاسم ، أو صراع أو تناقض . وان عمل الماضي يعمق فهمنا الذاتي للحاضر بدلاً من ان يفسده .وان الغريب هو ما مألوف دوماً وبشكل خفي ، فلن يكن يفكر ، ولم يكن يتقبل ان يكون التقليد والتاريخ مجالين للصراع والقمع والهيمنة والتحرر.

نستنتج مما ذكرنا ان الزمان والتاريخ هما جزء لا يتجزء من كينونة أي عمل أو خلق أدبي .

من خلال الجانب التنظيري للفلسفة التأويلية التي رسم حدودها ومفاهيمها غادامير نرى ان التركيز يكمن على فهم النص بوصفه الآلية المنتجة للتأويل ، وينطلق الفهم من الكل الى الجزء وبالعكس بعيداً عن أي دور للمؤلف .

---

(21)ينظر : فلسفة التأويل :54.

(22)فهم الفهم (مدخل الى الهرمنيوطيقيا) : 311.

(23)الحلقة النقدية (الأدب والتاريخ والهرمنيوطيقيا) ديفيد كوزنز هوي ، ترجمة خالدة حامد ، منشورات الجمل .: 73.

واتخاذ اللغة وسيلة لفهم النص ، ليس لغة القواعد والنحو وإنّما لغة الحوار . ويشترط في إكمال التجربة التأويلية أن يكون للزمن والتاريخ دوراً فعّالاً بوصفهما جزء لا يتجزأ من أي عمل .

ننطلق لتطبيق المفاهيم التأويلية على نصوص السياب التي حددناها بالايوبيات [24]: وهي قصائد عشر تحمل العنوان نفسه(سفر أيوب) مرقمة ، يتضح من خلال نظمها انها كُتبت في لندن . وتقع جميعها بين التاريخين 1962/12/26 و1963/1/2أي إنها جميعاً كتبت في ثمانية أيام فقط .

فالزمن متقارب والمكان ثابت والعنوان ثابت . يحيل الثبات في هذه البنية الشعرية إلى ترسيخ قضية واحدة ثابتة . وهي محور الأيوبيات .

التأويل العميق لنص الأيوبيات نجد أن البداية الأولى لتشكيل البنية اللغوية تخبرنا بحقيقة مؤلمة ، لكنه في الوقت ذاته يواجه الألم بالقبول والرضا .يبدأ الافتتاحية لسفر أيوب (1) قائلاً: [25]

لك الحمدُ مهما استطال البلاء

ومهما أستبّد الألم ،

لك الحمد ، إن الرزايا عطاء

وإن المصيبات بعض الكرم .

نجد البنية تحمل ثنائية (القبول / الألم) ويهيمن على البنية دلالة الرضا والقبول . افتتاح النص بالحمد لله مع تكرار لفظ الحمد . وجعل

الحمد -- مهما استطال العذاب

والحمد -- مهما استبد الألم

الرزايا - - عطاء

المصيبات - - كرم

فالدلالات السلبية التي تداخلت في البنية مثل (البلاء الألم ، الرزايا ، المصيبات)جاءت مفعمة بالقبول والرضا على الحالة الراهنة ، ربما الألم الحقيقي لم يبلغ مداه .

بعد تتبع البنية اللغوية للايوبيات نجد حضوراً تدريجياً للمعاناة ، وتطور للحالة النفسية وفيها خروج من حالة القبول إلى الشكوى .

فنجد في سفر أيوب(3) قوله [26]:

بعيداً عنك يا جيكور ، عن بيتي واطفالي

---

(24)ينظر : الأعمال الشعرية الكاملة (بدر شاكر السياب) ديوان منزل الاقنان ، المجلد الثاني ، دار العودة – بيروت ،2005: 297-317.

(25)م. ن : 2/ 297.

(26)ديوان السياب 2/301.

تشدُ مخالب الصّوان والاسفلت والضجر

على قلبي تمزق ما تبقى فيه من وتر .

وعند تتبع مجمل هذه البنية نجد هيمنة طابع الوجع والالم فلا حمداً ولا شكرًا . مع قيام مفاضلة بين مكانين (الماضي / الحاضر)، (جيكور / لندن) ، (القرية /المدينة الكبيرة) والمقارنة مقرونة بـ(الصحو / المرض) فقال [27]:

ولولا الداء ما فارقت داري ، يا سنا داري

واحلى ما لقيتُ على خريف العمر من ثمر.

هنا لا طير في الاغصان تشدو غير اطيارِ

من الفولاذ تهدر أو تحمحم دونما خوفٍ من المطر

ولا ازهار الاّ خلف واجهة زجاجية

يُراح إلى المقابر والسجون بهنَّ والمستشفيات .

ألا .. ألا يا بائع الزهر

أعندك زهرة حيّة ؟

أ أصرخ في شواع لندن الصماء : ((هاتوا لي احبّائي))

الحظ من حليف القرية جيكور وليس المدينة الكبيرة لندن . والسبب خلو المدينة من (الطيور والأزهار والأحباب). وبالعودة إلى الوحدة الرئيسة والنسق المركزي الذي تدور حوله البنية نجد الايوبيات مبنية على ثلاث مراحل وهي(القبول والشكوى واليأس أو التأزم) ففي سفر أيوب (1) وجدنا دلالات القبول والرضا والحمد ، وما تبعها من سفر أيوب (3و 4و 5) نجد تحوّل واضح في الدلالة إلى الشكوى مشفوعاً بجميع الوسائل التي يمكن ان تخلصه من حالته الراهنة .

ففي سفر أيوب(3) نجده يتوسل بقابيل قائلاً[28]:

يمرُّ بي الورى متراكضين كأن على سفر ،

فهل استوقف الخطوات ؟ أصرخُ : أيّها الانسان

أخي ، يا أنت يا قابيل .. خذ بيدي على الغُمّة!

أعنّي خفف الألم عنّي واطرد الاحزان

السياق المعرفي القصصي المتعارف عليه أن قابيل مجرم وقتل أخيه بسبب الغيرة والبغضاء . لكن السياق التأويلي لدعوة قابيل ما هي الاّ دعوة تخلص الانسان من الألم المحيط حتى وان كان المسبب قريبا جداً. فقابيل قتل أخيه ليخلص نفسه من ألم الغيرة ويبقى حراً طليقاً دون منازع .

---

(27) م.ن 2/ 302

(28) م.ن : 301

دعوة قابيل أحدى وسائل النجوى والخلاص وهكذا نجد البنية اللغوية تتجه من الهدوء والرضا إلى سياق أخر قائم على الشكوى ومحاولة الخلاص .

في سفر أيوب (4) نجد النفس اكثر هدوءً وهذا متأتي من إيجاد معادلاً موضوعياً يبث من خلاله الشكوى والالم . فالمتكلم هنا بلسان النبي أيوب (ع)الذي أصابه الداء. والشكوى هنا موجهة الى الله . جاء فيها[29]

يا ربَّ أيوب قد أعيا به الداء

في غربة دونما مال ولا سكن

يدعوك في الدُّجنِ

يدعوك في ظلموت الموت :أعباء

ناء الفؤاد بها ، فارحمه ان هتفا .

نلحظ ان المتكلم ليس عن ذات متوجعة بل عن نبّي اعياه الداء . وبهذه يتخلص من المواجهة المباشرة مع الإله . وبالحفريات التأويلية لهذه البنية اللغوية نجده يبحث عن المخلّص والمُنجّى وذلك بقناع أيوب ومناجاة نوح قائلاً[30]

يا منجياً فلك نوحٍ مزّق السُّدفا

عنّي ، أعدني إلى داري إلى وطني !

تبقى البنية اللفظية متأرجحة بين الأمل والشكوى . مع وجود أدوات يتوسل بها من اجل النجاة . فالالتفات الى أيوب ونوح عليهما السلام لم يكن اعتباطا من بين الأنبياء بل لكون النبي أيوب مرّة بأزمة مرضية وشفي ، ونوح واجه أزمة الطوفان ونجا .ولهذا تبقى دلالة الأمل حاضرة في البنية ونجده يقول :[31]

إني سأشفى ، سأنسى كلَّ ما جرحا

قلبي ، وعرّى عظامي فهي راعشةٌ ، والليل مقرور.

وسوف أمشي إلى جيكور ذات ضحى !

مع ملاحظة امتداد دلالة الأمل والشعور بالخلاص ففي أيوب (5) نجده يقول متأملاً:[32]

إيه إقبال لا تيأسي من رجوعي

هاتفاً قبل أن أقرع الباب : عادا

عازرٌ من بلاد الدجى والدموع ،

قبليني على جبهة صكّها الموتُ صكّا أليما،

---

(29) ديوان السياب :303/2

(30) م.ن :303/2

(31) م.ن : 304/2

(32) م. ن

فالأمل ودلالاته حاضرة في النص والرجوع الى الماضي قائماً ومتجسّدة بالالفاظ (سأشفى ، سأنسى ، سأمشي ، لا تيأسي ، عادا ،...)) على ان هذه الدلالة لا تحضى بديمومة وثبات . فانحسار دلالة الأمل وهيمنة الفاظ اليأس والموت كلما تقدمنا في نسيج البنية اللفظية .

من سفر أيوب (6) الى سفر أيوب (10) نلحظ تغير نسق الخطاب وتأزم الحالة الشعورية كلما تقدمنّا في تقصّي حقائق البنية اللغوية .

بعدما كانت رموز النجاة حاضرة في نسق الخطاب متمثلا بـ(أيوب الذي نجا من المرض ونوح الذي نجا من الغرق وقابيل الذي تخلص من عامل الغيرة) نلحظ تغيير النسق في استحضار الرمز . فالآن وبعد هيمنة اليأس عليه يستحضر أدم عليه السلام ويصفه بالخاسر الذي طُرد من الجنة . ويتخذ من المسيح عليه السلام معادلاً موضوعياً له بوصف المسيح مات مصلوباً .

فيقول في سفر أيوب (6) [33]

ويصرخُ آدم المدفون فيّ : رضيت بالعار،

بطردي من جنان الخلد اركض أثر حوّاءا.

ويقول في سفر أيوب (9)[34]

أحرّك الأطراف لا تطيعني ، مشلولة ،

مات الدم الفوّار فيها ، أُطفى الشباب ،

وامتد نحو القبر دَرْب ، بابُ

من خشب الصليب : فالمسيح

مات ، وفي الطوفان ظلّ نوح .

نجد البنية اللغوية مكتنزة بدلالات الموت والقبر والصليب وانطفاء الشباب .. وهكذا الحال كلما تقدمنا في قراءة النسق اللغوي .

قال في سفر أيوب (7)

ويخبّ المركب في داري :

برق يتلامح في الآفاق ، يعرّيها

ويذرّيها

كرماد المبخرة الثكلى

في مقبرة تهبُ الليلا

---

(33)ديوان السياب :2/ 308

(34)م.ن :2/314.

ألوان الموت وآهات الموتى

ويقول في سفر أيوب (8)

ذكرتُ شحوب وجهكِ حين زمّر بوق سيّارة

ليؤذن بالوداع . ذكرت لذع الدمع في خدي

ورعشة خافقي وأنين روحي يملأ الحارة

بأصداء المقابر . والدجى ثلجٌ وأمطار.

ويقول في سفر أيوب (9)

وانخطف الموتُ عليّ كانخطاف الباشق

على العصافير ، أحال ظهري

عمود ملح أو عمود جمر،

وفي سفر أيوب (10) يقول:

قصائد احتوى مداها دارة العُمُر،

يا غيمة في أول الصباح ،

يا شاعراً يهمّ بالرواح،

وودّع القمرا !

فوداع القمر هي أخر كلمتان يختم بهما الايوبيات وهو وداع الأمل والحياة والنذر بالموت والنهاية .

البنية اللغوية للايوبيات تشكلت من بناء زماني ثابت ووحدة موضوعية ثابتة ومكان ثابت . ووقع تأرجح بين ثنائية الأمل واليأس أو الشفاء والموت . وتجسّدت من خلال تطور البنية اللغوية بين البدايات والنهايات. وكان الرمز والقناع والمعادل الموضوعي من أهم وسائل التعبير عن مكمون الذات .

افتتاح الايوبيات بنسق القبول والرضا والتركيز على (لك الحمد) مكررة أربعة مرات ، ومعززة بأوصاف تدل على كمية هائلة من القبول والأمل مثل (العطاء والكرم والشكر وهدايا الحبيب) ولكن بعد ذلك نجد عدم استقرار النسق اللغوي وحضور الفاظ دالة على المقابر والموت واليأس والنهاية . فالأيوبيات :القصائد العشر هي بنية لغوية واحدة متطورة بحسب الحالة الشعورية والنفسية التي افرزتها الحالة المرضية للمتكلم . وكانت اللغة هي وسيلة التعبير عن مكنون النفس .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب الى المكبوت : محمّد عزّام ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة – دمشق 2008.
- إشكاليات القراءة واليات التأويل ، نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، بيروت – لبنان ، ط6– 2001 .
- الأعمال الشعرية الكاملة (بدر شاكر السياب) ديوان منزل الاقنان ، المجلد الثاني ، دار العودة – بيروت ،2005.
- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، تحقيق علي شيري ، دار الفكر – بيروت ، 1994.
- الحقيقة والمنهج ، هانس جيورج غادامير ، ترجمة :د.حسن ناظم وعلي حاكم صالح ، نشر دار أويا للطباعة والنشر – طرابلس ، 2007. .
- الحلقة النقدية (الأدب والتاريخ والهرمنيوطيقيا) ، ديفيد كوزنز هوي ، ترجمة خالدة حامد ، منشورات الجمل .
- دليل الناقد الأدبي :د ميجان الرويلي وسعد البازعي ، المركز الثقافي العربي – بيروت ، ط4–2005.
- فلسفة التأويل (الأصول –المبادئ –الأهداف) ، هانس جيورج غادامير ، ترجمة : محمد شرقي الزين ، دار الاختلاف ، ط2.
- فهم الفهم (مدخل الى الهرمنيوطيقيا) نظرية التأويل من افلاطون الى غادامير ، د عادل مصطفى ،ط1 –مصر –2007.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، أبو القاسم محمود بن عمر بن احمد الزمخشري(538هـ)، دار الكتاب العربي ، بيروت ‘ط3_1407هـ.
- لسان العرب : مادة (أوّل) للعلامة ابن منظور الافريقي (630–711هـ) ، طبعة مصححة اعتنى بها امين محمد عبد الوهاب و محمد الصادق العبيدي، دار احياء التراث العربي ، بيروت .
- لعبة المتاهة في التأويل ، د. بشرى موسى صالح ، دار أزمنة للنشر والتوزيع ، ط1، 2009.
- من فلسفة التأويل الى نظريات القراءة ، عبد الكريم شرقي ، منشورات الاختلاف ، ط1–2007.
- هرمنيوطيقيا الشعر العربي ، يوسف إسكندر ، دار الكتب العلمية ، بيروت –لبنان ،ط1– 2008.